مقاصد المؤلفين

فتحي حسن ملكاوي*

مقدمة:

الكتابة والقراءة أمران متلازمان، فأنت عندما تكتب مادة معينة فإنَّ الهدف الأساس أن تخاطب شخصاً أو جمهوراً معيناً ليقرأ ما كَتَبْت، فيتحقق نوع من التواصل بين الكاتب والقارئ. ولا قيمة للكتابة إذا لم تجد هذه المادة المكتوبة من يقرأها. وحتى لو كتب الكاتب لنفسه فإنَّ ثَمَّة مقصداً أو أكثر من الكتابة. وبقدر ما يكون مقصد الكاتب واضحاً ومحدداً تكون كتابته أفضل.

يصعب أن نتخيل كاتباً يكتب دون هدف محدد:

- فهو قد يكتب ليطلع القارئ على فكرة جديدة طوَّرها، وربَّما يصوغ مادة الكتابة بغرض إقناع القارئ بالفكرة، فيشرح رأيه ويدافع عنه بحماس، ويناقش الآراء الأخرى ويقدم الحجج لدحضها.

- وهو يكتب ليصحح خطأ وقع فيه غيرُه، فيبيِّن وجهَ الخطأ، وربَّما سبَبَ الوقوع في الخطأ، ويورد الصواب، مستنداً إلى مرجعية يَعدّها ذات مصداقية وموثوقية.

- وهو يكتب ليقدم خلاصة لبيانات كثيرة ليس من السهل على القارئ غير المتخصص أن يتفرغ للاطلاع عليها.

- وهو يكتب ليشرح مادة موجزة، ويقدم تفصيلات يبحث عنها القارئ ويتشوق لمعرفتها، أو يوضح مسألة يتكرر ذكرها دون بيان كاف، فيقدم الكاتب البيان المنشود.

- وهو يكتب استدراكاً لنقص من مادة مكتوبة لم يتمكن كاتبُها من الوصول إلى المعلومات الكاملة عن الموضوع، فيأتي مؤلفٌ ليكمل هذا النقص، ويضيف المعلومات

* دكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم، المدير الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ورئيس تحرير مجلة إسلامية المعرفة. البريد الإلكتروني: fathihmalkawi@gmail.com

الناقصة، فيبدو الموضوع أكثر وضوحاً، وربَّما يستدعى ذلك تصحيح المواقف التي قد تكون بنيت على المعلومات القاصرة.

– وهو يكتب في الوصف، لبيان ما يتميز به الموصوف، الذي قد يكون شيئاً، أو مكاناً، أو شخصاً، أو حالة نفسية أو اجتماعية... وما قد يترتب على هذا الوصف من موقف يتخذه المؤلف من الموصوف. وقد يكتب بهدف التعبير عن مشاعره فيصف شيئاً سرّه، أو موقفاً أحزنه.

– وقد يكتب مادة تتضمن معلومات يريد من القارئ أن يعرفها أو يتعلَّمها، وقد يكتب تعليمات للتقيد بها.

– وقد يكتب بغرض الترفيه والتسلية لإمتاع القارئ، وإشغال وقته... وهكذا.

والباحثون في مراكز البحوث يطورون مشاريع بحثية لحل مشكلة، أو معالجة أزمة، أو الإجابة عن سؤال، أو تحال إليهم هذه المشاكل والقضايا والأسئلة من حكومات أو شركات أو مؤسسات، فيتولى الباحثون في هذه المركز إجراء البحوث النظرية أو التطبيقية، ويكتبون تقارير عن نتائج بحوثهم، وقد تكون التقارير مطولة تتضمن كثيراً من التفاصيل، لذلك يكتبون أيضاً تقارير تنفيذية موجزة (Executive Summary) تيسر على القراء من صناع القرار الاطلاع على النتائج التي تعتمد في اتخاذ القرارات المناسبة بناءً عليها.

والباحثون في الجامعات يكتبون بحوثاً علمية وفق شروط ومواصفات محددة، سواءً كان هؤلاء الباحثون أعضاء في هيئة التدريس أو مراكز البحوث، فيكتبون بحوثهم بوصفها جزءاً من متطلبات المهنة، ومن متطلبات الترقية العلمية، أو كانوا من طلبة الدراسات العليا، الذين يكتبون بحوثهم لأغراض التخرج والحصول على الدرجات العلمية.

والكتَّاب في الصحافة يكتبون أعمدتهم في الصحف ضمن مجالات التحليل السياسي، والرصد الإعلامي، والمتابعة الثقافية، والمراجعة العلمية، والأخبار الرياضية، إلخ. وتكون هذه الكتابات وفق شروط وأعراف وتقاليد محددة.

وهناك شخصيات اكتسبت مكانة في المجتمع، نتيجة لإنجازات قدموها، أو خبرات اكتسبوها، أو مناصب شغلوها... فإذا كتبوا شيئاً فإنَّ من المتوقع أن تجد كتاباتهم كثيراً من القراء، ومن ثم تستثمر هذه الشخصيات هذه المكانة، أو تستثمرهم دور النشر للكتابة في موضوعات معينة أو لكتابة مذكراتهم، ويكون من وراء ذلك عائدات مالية كبيرة للكاتب والناشر، ومن ثم يكون الهدف من الكتابة، أو أحد الأهداف على الأقل، هو الحصول على هذا العائد المالي الكبير.

ولا شك في أنّ الجمهور المستهدف بالكتابة يسهم في تحديد الهدف الذي يقصد إليه المؤلف، فما يعرفه عن هذا الجمهور سوف يجعله يقدر مدى اتفاق القراء مع ما ذهب إليه. فإذا كان الكاتب يريد أن يقنع القارئ بالاهتمام بتعليم مهارات الكتابة للصغار، مثلاً، فالجمهور المستهدف هنا هو إما المعلمون أو أولياء أمور الطلبة.

إنَّ بؤرة اهتمام المؤلف في الموضوع الذي يكتب فيه، هي انعكاس للهدف من الكتابة، فنقطة التركيز سوف تبقى حاضرة في ذهن المؤلف، لأنَّها أطروحته التي يريد أن يدافع عنها، وهي فكرته الإساس، وهي صياغته للمشكلة.

إنَّ القارئ الذي ينجذب إلى عنوان كتاب حول موضوع في طرق التعلّم وأساليبه، سوف يشعر بخيبة الأمل إذا وجد أنَّ المؤلف انشغل طويلاً بالكتابة عن نظريات التعلّم.

تسعى هذه المقالة إلى إثارة وعي الكاتب –عندما يكتب– للتفكير فيما قد يبحث عنه القارئ، لا سيما هدف الكاتب، والجمهور الذي يحاول أن يخاطبه، كما تسعى إلى إثارة وعي القارئ للتفكير في الهدف الذي يقصد الكاتب تحقيقه من المادة التي كتبها، وربما ليفكر هذا القارئ بالطريقة المناسبة التي يتفاعل فيها مع المادة المقروءة. وبهذا التفكير ينتقل القارئ إلى تحديد هدفه هو من القراءة.

ومن أجل ذلك فقد جاء التذكير بدلالة مصطلح "مقاصد المؤلفين" كما ورد الحديث عنه في كتب التراث، في مراحل تاريخية مختلفة، ثم جاءت الدعوة إلى تأمل ما يكتبه المؤلف في مقدمة كتابه عن مقصده من التأليف، وأخيراً حاولت المقالة أن تنظر في دلالة مقاصد المؤلفين، وتمثلاتها، ومصطلحاتها، في الثقافة المعاصرة، وإعمال شيء من المقارنة بين مقاصد التأليف في الماضي والحاضر، من جهة، وأهدف البحث من جهة أخرى.

أولاً: مقاصد المؤلفين في التراث الإسلامي

مقاصد المؤلفين مصطلح استخدمه عدد من العلماء في التراث الإسلامي، منهم الثعلبي في تفسيره (المتوفى ٤٢٧هـ)، وابن حزم (٤٥٦هـ) في التقريب لحد المنطق، وعبد الرحمن بن خلدون (المتوفى ٨٠٨هـ) في المقدمة، والمقري التلمساني (المتوفى١٠٤١هـ) في أزهار الرياض، وحاجي خليفة (١٠٦٨هـ) في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وصديق بن حسن القنوجي (١٣٠٧هـ) في أبجد العلوم. وغيرهم. ويبدو أن المصطلح كان معروفاً قبل ذلك؛ فقد أشار ابن خلدون إلى أنَّ أرسطو ذكر المقاصد السبعة، وعقب عليها، وأن التعقيب الذي وضعه ابن خلدون هو في المعنى نفسه الذي وضعه أرسطو.

وفيما يأتي ذكر ما أورده بعض المؤلفين عن مقاصد المؤلفين:

١. جاء في تفسير الثعلبي: "وسيبقى لكل مؤلِّف كتاباً في فنٍّ قد سبق إليه، أن لا يعدم كتابُه بعضَ الخلال التي أنا ذاكرها؛ إمَّا استنباط شيء إن كان مقفلاً، أو جمعه إن كان متفرقاً، أو شرحه إن كان غامضاً، أو حسن نظم تأليفه، أو إسقاط شيء (أ)و تطويل. وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التي ذكرتها والله الموفّق لما نويت وقصدت."[١]

٢. وجاء في التقريب لحد المنطق لابن حزم: "والأنواع التي نذكرها سبعة لا ثامن لها: وهي إما شيء لم نسبق إلى استخراجه فنستخرجه، وإمَّا شيء ناقص فنتممه، إما شيء مخطأ فنصححه، وإمَّا شيء مستغلق فنشرحه، وإمَّا شيء طويل فنختصره، دون أن نحذف منه شيئاً يخل حذفه إياه بغرضه، وإمَّا شيء متفرق فنجمعه، وإمَّا شيء منثور فنرتبه."[٢]

٣. وجاء في مقدمة ابن خلدون: "ثم إنَّ الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها، وإلغاء ما سواها = فعدُّوها سبعة." وبعد أن عدَّها مع تفصيل وتمثيل، قال

---

[١] الثعلبي، الإمام أبو إسحق أحمد بن محمد الثعلبي. **الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)**، دراسة وتحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠٢م، ج١، ص٧٥.

[٢] ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد. **التقريب لحد المنطق**، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ص١٦.

"فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها، وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه، وخطأ عن الجادَّة؛ التي يتعيَّن سلوكه في نظر العقلاء مثل انتحال ما تقدَّم لغيره من التواليف ... فهذا شأن أهل الجهل والقِحَة." ثم ختم الموضوع بقوله: "ولذا قال أرسطو لمَّا عدَّد هذه المقاصد وانتهى إلى آخرها: فقال: وما سوى ذلك ففَضْلٌ او شَرَهٌ؛ يعني بذلك: الجهل والقحة."[٣]

٤. وجاء في أزهار الرياض للمقري التلمساني: "ورأيت بخط بعض الأكابر ما نصه: المقصود بالتأليف سبعة: شيء لم يسبق إليه فيؤلف، أو شيء ألف ناقصا فيكمل، أو خطأ فيصحح، أو مشكل فيشرح، أو مطول فيختصر، أو مفترق فيجتمع، أو منثور فيرتب. وقد نظمها بعضهم فقال:

ألا فاعْلَمَنْ أنَّ التآليف سبعة ... لكل لبيب في النصيحة خالص

فشرحٌ لإغلاق وتصحيحُ مخطئ ... وإبداعُ حَبْرٍ مقدم غير ناكص

وترتيبُ منثور وجمعُ مفرَّق ... وتقصيرُ تطويل وتتميمُ ناقص."[٤]

٥. وجاء في كشف الظنون لحاجي خليفة: "ثم إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عاقل إلا فيها، وهي: إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره، دون أن يخل بشيء من معانية، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أي شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه."[٥]

٦. وأورد القنوجي في أبْجد العلوم النص الذي جاء في كشف الظنون، حرفاً بحرف.[٦]

---

[٣] ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ج٣، ص١١٠٥-١١٠٧.

[٤] المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد. **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، ضبط وتحقيق وتعليق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، الرباط: منشورات صندوق أحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية والمعهد الخليفي للأبحاث المغربية، ١٩٧٨م، ج٣، ص٣٤-٣٥.

[٥] حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت، ص٣٥.

[٦] القنوجي، صديق بن حسن. **أبجد العلوم**، الجزء الأول: الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، أعده للطبع ووضع فهارسه: عبد الجبار زكّار، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨م، ص١٨٨-١٨٩.

هذه المقاصد التي تكرر ورودها في التراث الإسلامي ليست هي القول الفصل؛ إذ يمكن النظر إلى هذه المقاصد أو الأهداف ضمن تصنيفات أخرى. ومع أن غالبية من تحدث عن المقاصد جعل عددها سبعة، وأكد عدم وجود مقاصد غيرها، فإنَّ منهم من جعلها ستة أو ثمانية. وجرياً على خطة من عدَّها سبعة مقاصد، سوف نضرب أمثلة على كتب أُلِّفَتْ ضمن كل مقصد من هذه المقاصد السبعة:

١. فالإمام الشافعي ألّف كتاب "الرسالة" فكان موضوعه علماً جديداً هو علم أصول الفقه، وابن خلدون وضع كتاب "المقدمة" وهي في الأصل مقدمة كتاب "العبر"، لكنَّ ابن خلدون تبين له أنه ينشئ في هذه المقدمة علماً جديداً هو علم العمران البشري أو علم الاجتماع.

٢. ومن كتب الشروح شروح كثيرة لكتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ)، منها كتاب "تفسير غريب مالك" تأليف عبد الملك بين حبيب السُّلَمِي الأندلسي القرطبي (٢٣٨هـ)، وكتاب "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" للإمام يوسف بن عبد البَّر النَمَّري (٤٦٣هـ)، وكتاب "أنوار كواكب نهج السالك بمزج موطأ الإمام مالك" تأليف محمد بن عبد الباقي بن علوان الزُّرقاني (١١٢٢هـ)، و"المنتقى في شرح الموطأ" لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (٤٩٤هـ).

٣. ومن كتب الاستدراك لتصحيح أخطاء أو نفي شبهات، "تهافت الفلاسفة" للغزالي، و"تهافت التهافت" لابن رشد.

٤. ومن كتب إتمام النقص "إكمال تهذيب الكمال في علم الرجال" لعلاء الدين مغلطاي.

٥. من أمثلة ترتيب المسائل وتنظيمها في أبواب وفصول كتاب "الموطأ" للإمام مالك (١٧٩هـ)، وتهذيب ابن أبي زيد (الملقب، مالك زمانه، الفقيه أبو محمد محمد عبد الله ابن أبي زيد القيرواني ت(٣٨٦هـ) للمدونة المالكية الكبرى التي ألّفها عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسحنون (توفي ٢٤٠هـ).

٦. ومن أمثلة الاختصار والتلخيص والإيجاز، كتاب "التهذيب في اختصار المدونة" لأبي سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي القيرواني الشهير بالبراذعي (ت ٤٣٨هـ).وكثير من كتب التهذيب القديمة والحديثة هي من باب الاختصار والتلخيص.

٧. ومن أمثلة جمع المسائل والعلوم المفرقة في أبواب من علوم أخرى ليظهر علم جديد ما استنبطه الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) تحت مسمَّى: علم البيان في كتاب البيان والتبيين.

وبعض الكتب في التراث كتاب ألّفه أحد العلماء، ثم خضع لكثير من الأعمال التي ربما تقع ضمن عدد من المقاصد السبعة المشار إليها، فكتاب: "الكمال في أسماء الرجال" للحافظ عبد الغني المقدسي مثلاً، رأي فيه الحافظ جمال الدين أبو الحجاج المزي، مشكلات عديدة منها حاجته إلى استكمال وإتمام نقص، ومنها تصحيح وتصويب، ومنها شرح وإضافة تفصيلات... مما جعل المزي يؤلف كتاباً كبيراً سماه "تهذيب الكمال في أسماء الرجال". وقد أورد محقق هذا الكتاب أسماء عشرات الكتب التي عنيت بكتاب تهذيب الكمال للمزي، ما بين اختصار واستدراك، منها "تهذيب التهذيب" للإمام شمس الدين الذهبي، كما اختصر الذهبي نفسه التهذيب مرة أخرى في كتاب "الكاشف" وجعله عُشر الكتاب الأصلي. واختصر هذا التهذيب صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي في كتاب سماه "خلاصة التهذيب". وقد هذّبه ابن حجر العسقلاني في كتاب سماه: "تهذيب التهذيب"، ثم اختصر ابن حجر التهذيب الأصلي إلى نحو الثلث، ثم أعاد اختصاره مرة أخرى في كتاب أصغر سماه "تقريب التهذيب". ومن أخضع الكتاب للدراسة والمراجعة علاء الدين مغلطاي الذي ألف كتاباً بعنوان: "إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال."[٧]

[٧] المزي، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج. **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تهذيب وتنقيح وزيادة على كتاب الكمال في أسماء الرجال للحافظ عبد الغني المقدسي. تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٣م، ص٥١-٧١. وقد أورد المحقق أسماء عشرات الكتب التي عنيت بكتاب تهذيب الكمال ما بين اختصار واستدراك.

ثانياً: مقاصد المؤلفين في مقدمات كتبهم

كانت الأمثلة السابقة نماذج من مؤلفين كتبوا عن مقاصد غيرهم من المؤلفين. لكنَّ عادة المؤلفين أنفسِهم أن يبيِّنوا في مقدمات كتبهم وصفاً إجمالياً للكتاب الذي يكتبونه، وتتضمن المقدمة مقصد الكتاب أو الغرض منه أو منفعته، إضافة إلى عناصر أخرى سمُّوها رؤوس العلم، ومنها: عنوان الكتاب وسبب تسميته، وموضوع العلم، ومرتبته، ونحو الكتاب أو منهج تأليفه. يقول حاجي خليفة:

"وقد جرت عادة المصنفين: بأن يذكروا في صدر كل كتاب، تراجم تعرب عنه، سموها: (الرؤوس)، وهي ثمانية: الغرض: وهو الغاية السابقة في الوهم المتأخرة في الفعل؛ والمنفعة: ليتشوق الطبع؛ والعنوان: الدال بالإجمال على ما يأتي تفصيله، وهو قد يكون بالتسمية، وقد يكون بألفاظ وعبارات تسمى: (ببراعة الاستهلال)؛ والواضع: ليعلم قدره؛ ونوع العلم: وهو الموضوع، ليعلم مرتبته، وقد يكون جزءاً من أجزائه، وقد يكون مدخلا، كما سبق في بحث الموضوع؛ ومرتبة ذلك الكتاب: أي: متى يجب أن يقرأ؛ وترتيبه؛ ونحو التعليم المستعمل فيه، وهو بيان الطريق المسلوك في تحصيل الغاية."[٨]

وفيما يأتي عدد من الأمثلة على من بيّنوا مقاصدهم من الكتاب الذي يؤلفونه:

١. "كتاب الحيوان" للجاحظ (ت٢٥٥هـ): يبدأ الجاحظ كتابه في المقدمة "خطبة الكتاب" بتقريع شخص آخر وجَّه له اللومَ على ما ضمنه في عدد من كتبه. وفي كلام الجاحظ بيان لموضوع كل كتاب والهدف منه. ثم يتحدث عن كتاب الحيوان، فيذكر خصائص الكتاب، ويتحدث مطولاً عن الفئة المستهدفة بالكتاب، فيقول: "وهو كتاب يحتاج إليه المتوسط العامي، كما يحتاج إليه العالِم الخاصي، ويحتاج إليه الريِّض كما يحتاج إليه الحاذق، فأما الريض للتعلم والدربة، وللترتيب والرياضة، وللتمرين وتمكين العادة...، وأما الحاذق فلكفاية المؤنة، لأنَّ كلَّ من التقط كتاباً جامعاً وباباً من أمهات العلم مجموعاً كان له غُنْمُه، وعلى مؤلِّفه غُرْمُه، وكان له نَفْعُه وعلى صاحبه كَدُّه... وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العُرْب والعجم، لأنَّه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلامياً

[٨] حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مرجع سابق، ص٣٦.

جماعياً، فقد أخذ من طُرَف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وِجدان الحاسة، وإحساس الغريزة. ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك...."[٩]

٢. كتاب "تهذيب اللغة" للأزهري الهروي (توفي ٣٧٠هـ): فقد أورد المؤلف في المقدمة قولَه: "وقد دعاني إلى ما جمعتُ في هذا الكتاب من لغات العرب وألفاظها، واستقصيتُ في تتبُّعِ ما حصَّلت منها، والاستشهاد بشواهد أشعارها المعروفة لفصحاء شعرائها، التي احتجَّ بها أهل المعرفة المؤتمنون عليها، خلالٌ ثلاثٌ؛ منها: تقييد نكتٍ حفظتُها ووعيتُها عن أفواه العرب الذين شاهدتهم وأقمت بين ظهرانيهم سنيَّات؛ إذ كان ما أثبتَه كثيرٌ من أئمةِ أهل اللغة في الكتب التي ألّفوها، والنوادر التي جمعوها لا ينوبُ منابَ المشاهدة، ولا يقوم مقام الدُّربة والعادة. ومنها: النصيحة الواجبة على أهل العلم لجماعة المسلمين في إفادتهم ما لعلَّهم يحتاجون إليه .... والخلة الثالثة هي التي أكثر القصد: أني قرأت كتباً تصدَّى مؤلفوها لتحصيل لغات العرب فيها، مثل كتاب (العين) المنسوب إلى الخليل، ثم كتب من احتذى حَذْوَه في عصرنا هذا. وقد أخلَّ بها ما أنا ذاكره من دَخَلها وعَوارها ..."[١٠]

٣. كتاب "الكامل" للمبرد (ت ٢٨٥هـ) فقد جاء في مقدمة الكتاب: "والنيّة فيه أن نفسر كل ما وقع في الكتاب من كلام غريب، أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً، وعن أن يُرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً."[١١]

٤. كتاب "القاموس المحيط" للفيروزأبادي (ت ٨١٧هـ) جاء في مقدمته: "وضمَّنْتُه خلاصة ما في "العباب" و"المحكم"، وأضفت إليه زيادات منّ الله بها عليّ وأنعم، ورزقنيها

[٩] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **كتاب الحيوان**، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٦٥م، ج١، ص١٠-١١.

[١٠] الأزهري الهروي، أبو منصور محمد بن أحمد، **تهذيب اللغة**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، ٢٠٠١م، عدد الأجزاء/١٥، ص٧.

[١١] المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. **الكامل**، تحقيق: محمد أحمد الدالي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٢م، ص٢.

عند غوصي عليها من بطون الكتب الفاخرة الدَّأماء الغَطَمْطَم، وأسميته "القاموس المحيط" لأنه البحر الأعظم. ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري، وهو جدير بذلك، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر، إما بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادرة..."[١٢] و"العباب" كتاب ألّفه رضيُّ الدين بن محمد بن الحسن بن حيدر العمري الصغاني (٦٥٠هـ). و"المحكم" كتاب ألّفه عليٌّ بن إسماعيل المشهور بابن سيده، (٤٥٨هـ)، أما صحاح الجوهري فهو كتاب "الصحاح" الذي ألّفه إسماعيل بن حماد الجوهري (٤٠٠هـ).

ثالثاً: مقاصد المؤلفين والباحثين في الثقافة المعاصرة

اتباعاً لما حكم به الأقدمون يميل بعض الباحثين المعاصرين –لا سيما من المتخصصين في موضوعات التراث الإسلامي– إلى اعتماد المقاصد السبعة، ويرون أنَّ كلَّ ما سبق أن كُتب يسهل أن نراه في واحد أو أكثر من هذه المقاصد دون غيرها، ويرون كتب الترجمة شروحاً، وكتب التحقيق تهذيباً وإصلاحاً، ويرون كتب المعاجم والقواميس تنظيماً وتبويباً. ومع ذلك فإنَّ بعض أعمال التأليف مثل نظم الشعر وتدوين العلم الشفوي لحفظه من الضياع يصعب إسكانها في واحد من هذه المقاصد بصورة لا تقبل الجدل.

وثَمَّة من يرى أنَّ المقاصد القديمة للمؤلفين قد لا تعبر عن مقاصد الباحثين المعاصرين. فالبحث المعاصر يقوم أساساً على تحديد مشكلة والسعي لحلِّها، وطرح سؤال والتفتيش عن إجابته، وتقويم مستوى الإنجاز والأداء في عمل معيّن والسعي لتطويره وتنميته وترقيته... إلخ. ولكن مسألة المقابلة بين مقاصد المؤلفين التراثية، ومقاصد الباحثين المعاصرين هي مسألة مصطلحات في كثير منها. فمصطلح الباحث، والبحث والعلمي، والدوريات العلمية المتخصصة في نشر البحوث، وإدارة البحوث، وأولويات البحث، والبحث الأكاديمي، والبحث المهني، إلخ، أصبحت لها دلالات محددة قد لا تكون متطابقة تماماً مع مصطلحات الكاتب أو المصنف أو المؤلف وما كان ينتجه أولئك من كتب أو مؤلفات أو مصنفات.

[١٢] الفيروزأبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. **القاموس المحيط**، مرتب ترتيباً ألفبائياً وفق أوائل الحروف، تنقيح وتعليق: أبو الوفا نصر الهوريني، القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٨م، ص٢٦.

ولنأخذ مثلاً على الدلالة المعاصرة للمقصد الأول من مقاصد المؤلفين وهو اختراع الجديد. فالباحث المعاصر قد يسعى إلى اكتشاف مبادئ نظرية وتجربة تطبيقها. وهذا الاكتشاف هو إبداع غير مسبوق. وقد أقرَّت المجتمعات المعاصرة حقَّ المكتشف المبدع في أن يُسجَّل اكتشافه باسمه، وأن تصدر به شهادة تسمى: "براءة اختراع"، وهو حق يملكه المكتشف حصرياً (حق الملكية)، ولا يملك أحد بعد ذلك أن يدعيه، وعلى أي شخص يذكُرُه أن ينسبَه إلى صاحبِه. وإن كان ثمة فائدة في استثمار هذا الاكتشاف لأغراض تجارية فالعائد التجاري هو حق المكتشِف حصرياً. والاعتراف بالإبداع، والاختراع، والاكتشاف، ليس مقصوراً على الفيزياء والكيمياء والطب وإنما تشمل بالإضافة إليها، الآداب والاقتصاد والسلام.

لكن حقوق الملكية المعاصرة لا تقتصر على "براءات الاختراع" والاكتشاف والإبداع، بل تمتد إلى دوائر واسعة تشمل الكتب العادية سواءً كانت كتباً ثقافية عامة أو كتباً منهجية جامعية؛ فالكتاب الذي يؤلفه المؤلف يُسجَّل في كل بلد في دائرة خاصة (المكتبة الوطنية مثلاً)، ويعطى للكتاب رقم تصنيف دولي يتميز به عن أي رقم آخر (ردمك). ويتضمن الرقم تعريفاً بعنوان الكتاب ومؤلفه ودار النشر وسنة النشر... إلخ. وليس من حق أن شخص آخر أن يقتبس عبارة أو فكرة من الكتاب دون أن يوثق ذلك توثيقاً كاملاً، وفق أنظمة التوثيق المتعارف عليها، وإلا فإنَّ ذلك الشخص يعد معتدياً على الملكية الفردية للمؤلف، ويُعد سارقاً، يخضع لنظام العقوبات المقررة في البلدان التي وقعت على الاتفاقيات الخاصة بحقوق الملكية، فضلاً عن عقوبات التشهير والعزل التي تترتب على ذلك.

وهذه الكتب في كثير من الأحيان لا يقع المقصد من تأليفها بالضرورة، ضمن إبداع الجديد، فأساتذة الجامعات مثلاً يكتبون كتباً في موضوعات تخصصهم لأغراض التعليم. ويكون مقصد المؤلف في الغالب أن يجمع مادة الكتاب من عدد من الكتب الذي كتبها غيره، لتغطي هذه المادة متطلبات مقرر دراسي معين، بصورة قد لا تحققها الكتب الأخرى، ويحرص المؤلف عادة على تضمين كتابه المعلومات الأكثر جدَّة وحداثة من

الكتب الأخرى، وربما يضيف إليه شيئاً من خبرته الشخصية في موضوع الكتاب، ويضمنه قراءات مقترحة من مراجع أخرى، وتمارين، وأسئلة، وصوراً، ورسومات، ومخططات توضيحية. والكتاب من هذا النوع يسمى "الكتاب المنهجي". ويؤلفه مؤلف واحد أو عدد قليل من المؤلفين الذين يدرِّسون المقرر الدراسي الجامعي. ويكون المطلوب من الطالب الجامعي أن يقرأ الكتاب كلَّه، أو معظمه، وتكون مادة الكتاب موضوعات لأسئلة الاختبارات الجامعية.

وثَمَّة نوع آخر من الكتب الجامعية، لا تكون خاصة بمقرر دراسي واحد، وإنما يمكن الاستفادة من فصول الكتاب في تدريس عدد من المقررات، ويكون حجمه كبيراً نسبياً، ويشارك فيه عدد من المؤلفين، يكتب كل منهم فصلاً في موضوع اختصاصه، ويتولى تحريره واحد أو أكثر من المؤلفين، ويسمى هذا النوع من الكتب: الكتاب المرجعي.

ولا شك في أنّ كتب الشرح لا تزال موجودة في الثقافة المعاصرة، وبعضها يتناول كتب التراث المختصرة، ليشرح المؤلف دلالة بعض الألفاظ التي لم يَعُدْ استعمالُها شائعاً كما كان، وليبين دلالة أسماء الأماكن أو الأعلام التي لم تعد مألوفة للقارئ المعاصر، وليعيد بعض العبارات إلى أصولها من نصوص دينية أو أدبية، وليوثق بعض الأفكار أو يقارنها مع ما ورد لدى مؤلفين آخرين. وكثير من كتب الشرح هذه تدخل ضمن ما يعد في الثقافة المعاصرة من أعمال التحقيق التي تخضع لها النصوص القديمة. ومن كتب الشرح المعاصرة كذلك شرح دواوين الشعر؛ إذ لكل شاعر بيئته وثقافته وأسلوبه مما لا يقف عليه القارئ العادي، ولذلك يلزم شرحه لفهم القصيدة. وتفاسير القرآن الكريم من كتب الشرح كذلك، سيما أن المفسر المعاصر –مثله في ذلك مثل أي مفسر في أي وقت– يحاول أن يربط معنى الآية القرآنية بالواقع المعاصر ليبين مقصد القرآن الكريم الدائم في تحقيق الهداية للإنسان في كل عصر. ولا يبعد أن يتضمن التفسير الحديث أحياناً أفكاراً جديدة يتفتق عنها ذهن المفسر، مما يتفضل الله عليه من معانٍ لم ترد في إذهان السابقين، لا سيما عندما تكشف العلوم المعاصرة على آفاق جديدة يراها المفسر المعاصر تفسيراً جديداً للنص القرآني.

ومع أن مقاصد الترجمة قد تكون ضمن الشرح والتفصيل، بوصفها في صورتها المبسطة نقل المعنى الواحد من عبارة بلغة إلى المعنى نفسه بلغة أخرى، فإن الموضوع في الثقافة المعاصرة يخضع لجدل متواصل بين الأدباء والنقاد والفلاسفة. إذ يرى بعضهم أن الترجمة تأليف وإبداع.[١٣]

أمّا مقصد الاختصار، فكثير من كتب التهذيب المعاصرة يكون المقصد منها اختصار المادة الأصلية، وتجريدها من الإضافات التي لا تخل بدلالة النص وما يحتويه من أفكار. فكتب الحديث والسيرة مثلاً يمكن حذف السند والإبقاء على المتن، أو الإبقاء على الحديث الصحيح وحذف ما دون الصحيح من رتبة الحديث. وكتب اللغة يمكن أن يحذف منها الإعراب والأمثلة والأشعار والروايات ويكتفي بتعريف الألفاظ وبيان دلالاتها اللغوية.

وتأتي معالجة مقاصد المؤلفين في الثقافة المعاصرة ضمن تدريس النصوص اللغوية، وممارسة التحليل والنقد لهذه النصوص، فيجري تعليم الطلبة وتدريبهم على استنباط مقاصد المؤلف، والجمهور المستهدف بالتأليف. فكيف يتم ذلك؟

عندما نتحدث عن مقاصد المؤلفين فإننا سوف نفكر في السبب الكامن خلف النص الذي كتبه المؤلف، لماذا كتب ذلك النص؟ ما الهدف أو الدافع الذي جعل المؤلف يكتب ما كتبه؟

إنَّ الإجابة عن هذه الأسئلة ربما لا تكون سهلة كما يبدو للوهلة الأولى؛ فقد تكون الإجابة مركبة ومتعددة، فقلما يكون هناك سبب وحيد للكتابة. لكنّ البحث عن هذه الأسباب جهد مفيد للكاتب والقارئ على حد سواء، إضافة إلى الفائدة المتحققة في النص المكتوب نفسه. فالقارئ عندما يفكر في هدف الكاتب من النص المكتوب فإنَّه لا

[13] Dorothy, Kenny. *Lexis and Creativity in Translation: A Corpus Based Approach Routledge*, Apr 8, 2014. See also:

- Kemblem Ian (Editor). *Translation and creativity: how creative is the translator?* proceedings of the conference held on 12th November 2005 in Portsmouth Portsmouth: School of Languages and Area Studies, University Of Portsmouth, 2006.

يرى النصَّ كلمات مصفوفة، وجملاً مفيدة مرسومة على الصفحات التي يقرأها، وإنما يسمع صوت إنسان يتحدث إليه، ويقوم بجولة في فكره، وعندما يدرك القارئ هدف الكاتب فإن ذلك يفيده عدد من الأمور منها:

١. يعرف القارئ شيئاً عما يتوقعه المؤلف من قراءة النص المكتوب

٢. يطلع على أفكار وتفاصيل قد تكون جديدة مفيدة له

٣. يمارس التقويم النقدي للمادة المكتوبة في ضوء تقديره لمدى نجاح المؤلف في تحقيق هدفه

٤. يتفاعل إيجاباً وسلباً مع دوافع الكاتب وقناعاته.

نحن نستطيع أن نستنتج مقاصد النص، لأنَّ اللغة هي وعاء المعاني؛ فالكاتب ينوي عادة أن يرسل رسالة، ويوصل فكرة إلى جمهور معين من القرّاء. وثمة فرق بين الفكرة الكلية للمادة المقروءة، وهدف الكاتب من كتابتها؛ فالفكرة هي ما يسعى القارئ أن يفهمه من النص، بينما الهدف هو جواب عن سؤال آخر هو لماذا يخبرني المؤلف بهذه الفكرة؟ أو ما الذي يريد الكاتب منِّي أن أفعله بالمعرفة التي يقدمها لي في كتابه؟

وبعض الأهداف تكون واضحة في النص نفسه بصورة مباشرة، إذ يقول لك المؤلف: أيها القارئ أريدك أن تعرف شيئاً جديداً هو.... لكن المؤلف ربما يرواغ في التعبير عن الفكرة التي يريد أن ينقلها، فيسرِّبها تسريباً، لعلَّ القارئ يتقبلها دون وعي، وقد يصوغ المؤلف فكرته بطريقة يفهمها القراء على وجوه مختلفة. وقد يكون هدف المؤلف من هذه المراوغة هدفاً تعليمياً، يقصد منه أن يبذل القارئ جهداً في القراءة المتعمقة لتطوير مهارات التفكير من خلال تحليل النص المقروء واستنتاج ما يريده المؤلف.

ومع أهمية وعي المؤلف على أهدافه، فإننا نتوقع أن يكتب بعض المؤلفين ما يكتبون تلبية لمتطلبات إدارية تتصف بالشكلية. وتكون الأفكار التي تتضمنها المادة المكتوبة في حدها الأدنى. ترى إلى أي حد يصدق ذلك على طلبة الدراسات الجامعية العليا عندما

يكتبون أطروحاتهم الجامعية؟! وعلى أساتذة الجامعات عندما يكتبون بحوثهم لأغراض الترقية العلمية؟!

وأين تقع أهداف الكاتب الحقيقية، في حالة كتَّاب الصحف اليومية، عندما تقتضي المصالح السياسية والأمنية المحلية أن تتجه المقالة بالقارئ وجهة تتناقض مع الحقيقة؟! وأين تقع هذ الأهداف عندما يكتب السياسيون مذكراتهم، لا سيّما بعد التقاعد، للكشف عن حقائق كانت مجهولة، أو لتبرير مواقفهم وقراراتهم، أو للاتِّجار بأسمائهم على كتب كتبها في حقيقة الأمر "كُتَّاب الظل" ولم يكتبوها هم؟!

إنَّ مهنة الكتابة تتضمن صياغة النص المكتوب بصورة تعكس أفضل ما يتصف به المؤلف، وتفتح له أبواباً وعقولاً يخاطب بها الجمهور المستهدف، فهذا النص هو في كثير من الأحيان الطريقة التي يقدم بها المؤلف نفسه إلى الجمهور، حتى يراه الجمهور على هذه الطريقة دون غيرها، فمن الأهمية بمكان إذن أن تكون الكلمات والعبارات المستخدمة في النص المكتوب قادرة على التقاط الأفكار وتوصيل الرسالة على الوجه المنشود.

ومن أساليب الكتابة في بعض الأحيان صياغة بعض الأفكار بصورة هزلية مضحكة، فلماذا يريد الكاتب أن يثير الضحك لدى القارئ؟ هل يريد أن يجذب اهتمام القارئ لمواصلة القراءة؟ أهو أسلوب الكاتب في تحدي الأنماط السائدة والشائعة والتقليدية من السلوك لاستدراج أفكار جديدة حول الموضوع؟

بعض الكتاب يكتبون وفي مقاصدهم الظاهرة أو الخفيّة أن يتيحوا للقارئ فرصة للتحليل النقدي المقارن للأفكار أو المواقف المتعارضة للتعبير عن التصنيف في فئات مختلفة والمزايا القائمة للجانب الإيجابي والجانب السلبي من كل رأي أو موقف، وحث القارئ على اكتساب رؤية جديدة للموضوع، ودعم رؤية محددة لتغيير الموقف النمطي التقليدي تجاه الموضوع، والسعي لتغيير موقف القارئ وقبول رأي آخر ليس مألوفاً.

وينصح القارئ عندما يقرأ كتاباً أو مقالة أن يحاول استنتاج أهداف المؤلف عن طريق ملاحظة الهدف المباشر الظاهر، أو الهدف الخفي المستتر، مستعيناً بما يأتي:

١. تدقيق النظر في الأدوات التي يستعملها المؤلف، المفردات ذات الرَّوِيِّ الواحد، والكلمات ذات المعاني المتعددة، والألفاظ العامية، والألفاظ الأجنبية، والعبارات الهزلية أو الساخرة...

٢. اختبار مشاعر القارئ تجاه استعمال المؤلف لهذه الأدوات...

٣. تساؤل القارئ عما يريده المؤلف منه أن يفعل بعد قراءة النص من بين واحد أو أكثر مما يأتي:

أ. تحدي الصورة النمطية في التفكير، والأنماط التقليدية السائدة في السلوك.

ب. الإعلاء من شأن فكرة أو شخص أو مؤسسة ومجاراته في استخدام الأساليب الساخرة من فكرة أو شخص أو مؤسسة.

ت. المقارنة الموضوعية والموازنة بين المتقابلات من الأفكار والآراء؟

ث. التفكير في آراء أو مواقف على غير ما هو شائع ومعروف؟

خاتمة:

عند الانتهاء من قراءة هذا "النص" المكتوب، سوف يتساءل بعض القراء: ماذا كان هدف كاتب هذا النص؟ ولمن يوجِّه هذا الخطاب؟ وما الافتراضات الكامنة وراء هذا الخطاب؟ وما العلاقة بين هذا العرض وما يقوله بعض النقاد المعاصرين ممن تتلمذوا على رواد الحداثة وما بعد الحداثة؟

كانت هذه المقالة تفترض أنَّ وَعْيَ الكاتب –مؤلفاً أو باحثاً– على الأهداف التي يريد أن يحققها مما يكتب، وحضورَ القارئ الذي يخاطبه هذا الكاتب في ذهنه، وتخيل الكاتب لصور التفاعل الذي يتوقعها من القارئ... كل ذلك يعين الكاتب أن يتَّجه بما يكتب وجهةً محددة، فلا يسرف فيما قد يحرفه على تلك الوجهة.

وكانت المقالة تفترض كذلك أن القارئ يسعى إلى التعرف إلى الهدف الذي يريد الكاتب أن يحققه، ومن ثم يتفاعل مع الكاتب في ضوء ذلك. والافتراضان يؤكدان على التلازم بين الكتابة والقراءة. فما كَتَب الكتَّاب شيئاً إلاّ ليقرأه القراء. وإذا كان الكاتب

يسطر شيئاً من العلم فيما يكتب، فإنَّ القارئ ربَّما يتعلم شيئاً من العلم مما يقرأه. فالعلم موضوعٌ للكتابة والقراءة.

وربما يجد بعض القراء حين يقرأون المادة المكتوبة في هذه المقالة تبسيطاً لمسألة العلاقة بين الكتاب والقراءة، أو بين الكاتب والقارئ. فثمة كتابات حداثية أو ما بعد حداثية تفترض موت الكاتب؛ إذ ترى أن القارئ هو من يمتلك السلطة في تحديد المعاني التي يريدها في المادة المكتوبة، ولا شأن للكاتب بما كتب بعد أن انتهى من الكتابة.

وربما ترى هذه الكتابات أكثر من ذلك؛ فليس الكاتب وحده الذي مات، بل القارئ كذلك! لأن القارئ الذي يحاول أن يعطي نفسه سلطة اكتشاف دلالات النص وما بين سطور النص، وما وراء السطور،... إنما يعطي للنص معنى محدداً، وفق حدود اللغة والعلم والقوانين، وهو أمر لا يملكه القارئ، لأن النص في النهاية هو كل شيء، وهو في الوقت نفسه لا شيء، فالتفكيك وصل إلى كل شيء، حتى انهارت هياكل الأشياء، ولم تعد عناصرها تنتمي إليها، أو تنتمي إلى أي شيء!

وإذا كان ما قلناه عن علاقة الكاتب والقارئ نوعاً من التبسيط، فماذا نسمى هذا الذي يقوله مفكرو الموت؛ موت الكاتب وموت القارئ؟ حين يلغون أية مرجعية للكتابة والقراءة، فلا يبقى في نهاية المطاف إلا العبث البنيوني والتفكيكي للفكر والعلم واللغة، الذي توحي به مقولات رولان بارت، وميشيل فيكو، وجاك دريدا، وتلامذتهم؟!